مجلة العلوم الإنسانية ——— العدد30 - ديسمبر2008، المجلد أ، ص.ص.105-116 ———

المقاربة المابين فرعية وتصميم النماذج في البحوث الاجتماعية

ملخص

إن التركيز التخصيصي في البحث لا يمكن إلا من رؤية جزئية للمشكلات، فثمة حاجة ماسة لتجاوز إطار الرؤية الذي يقدمه فرع من الفروع بغية الوصول إلى نظرة أشمل وأكمل. لذا فإن التوجه نحو استخدام مقاربة ما بين فرعية يفرض نفسه أكثر فأكثر في دراسة المشكلات الاجتماعية الكبرى . يستخدم العلماء في الفروع العلمية الأخرى والمهن التكنولوجية والإلكترونية النماذج لتمثل بعض جوانب العالم الواقعي بشكل نظامي، ومن ثم يمكن أن يُنظر إلى النموذج على أنه شبيه بشيء ما. إن فكرة تطبيق النماذج في العلوم الاجتماعية كاستناد منهجي اشتقت من العلوم التكنولوجية وتطورها التاريخي. فالنموذج ليس موجودا في الواقع وإنما يصاغ نظريا من أجل تقريب وفهم الواقع ومن ثم يسهل تغييره والتنبؤ بمشكلات وصعوبات ذلك التغير.

من هنا ركبنا مفاصل هذا البحث وعناصره من النقاط التالية :

- المقاربة المابين فرعية
- والنمــاذج في العلوم الاجتماعية.

أ.د. شوية سيف الإسلام
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة عنابة، الجزائر

Résumé :

Privilégier exclusivement l'approche d'une seule et unique discipline dans la recherche ne permet qu'une vision partielle des problèmes. Un besoin pressant se fait sentir de dépasser le cadre d'analyse proposé par telle ou telle branche de connaissance scientifique en vue d'atteindre une compréhension globale et complète.

مقدمـة:

إن التركيز التخصيصي في البحث لا يمكن إلا من رؤية جزئية للمشكلات، فثمة حاجة ماسة لتجاوز إطار الرؤية الذي يقدمه فرع من الفروع بغية الوصول إلى نظرة أشمل وأكمل. لذا فإن التوجه نحو استخدام مقاربة ما بين فرعية يفرض نفسه أكثر فأكثر في دراسة المشكلات الاجتماعية الكبرى. كمشكلة الفقر،

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر 2008.

A partir de là, s'orienter vers l'adoption d'une approche pluridisciplinaire dans l'étude des grands problèmes sociaux s'impose de plus en plus.

Par la suite, nous montrerons comment les chercheurs dans les autres disciplines et métiers technologiques et électroniques utilisent des modèles pour se représenter certains aspects de la réalité de façon ordonnée. L'idée d'appliquer les modèles dans les sciences sociales comme moyen méthodologique est inspirée des sciences technologiques et leur évolution historique. Le modèle n'est donc pas une réalité concrète mais une construction théorique permettant d'approcher et de comprendre le monde réel et de là a opérer le changement et aussi de prévoir l'ensemble des problèmes et difficultés liés à ce changement.

Nous avons articulé cette contribution comme suit :

-L'approche interdisciplinaire.
-Les modèles dans les sciences sociales.

الجريمة، تعاطي المخدرات... وهي كبقية المشكلات الاجتماعية ذات وجوه متعددة.

مرادي من هذا التشخيص القول إن موضوع العلوم الاجتماعية يمثل شبكة من العلاقات بين فروع عديدة ومستقلة، ومن الضروري إظهار تقاطعها.وعلى الباحث المتمرس أن يستعمل في هذا المجال المقاربة **المابين فرعية**

غني عن البيان أن المنهجية العلمية تتطلب إنشاء علاقة ترابطية بين مختلف جوانب البحث عن طريق تكوين شبكة علائقية بين النظريات العلمية المرتبطة بالبحث والواقع الميداني، وهكذا لا تقيَّم البحوث العلمية وفق مرجعيتها الميدانية فقط، وإنما وفق سياق النظرية أو النظريات التي توظف في البحث. فالبحوث العلمية لا تحقق معناها العلمي إلا من خلال ربط النظريات العلمية بالواقع .

تستند العلوم الاجتماعية والفروع العلمية الأخرى على ركنين أساسين: النظرية والبحث التجريبي. العلماء الاجتماعيون كغيرهم من العلماء يعملون في « عالمين»: عالم الملاحظة والتجربة، وعالم الأفكار والنظريات والنماذج. إن تأسيس رابطة منهجية بين هذين العالمين يعمل على تعزيز أهداف العلوم الاجتماعية _ شرح الظواهر وإنشاء التنبؤات حولها. (1)

والتساؤل الذي يطرح هو : كيف يمكن تأسيس مقاربة مابين فرعية ؟ ومن ثم كيف يمكن للباحث أن يتشرب من النظريات المختلفة ؟ وكيف يختار المناهج ووسائل جمع البيانات الملائمة ؟ وانطلاقا من هذه المعطيات كيف يمكن للباحث صياغة نموذج ؟

وعليه سيسعى هذا البحث إلى استعراض واستجلاء بعض الأفكار عن المقاربة المابين فرعية، والتعرف على أهمية النماذج في العلوم الاجتماعية وعرض الجانب العملي والتطبيقي لكل من المقاربة المابين فرعية والنموذج .

أولا - المقاربة المابين فرعية:

يقصد بالمقاربة المابين فرعية(*): تطبيق لما اشترك بين عدة فروع التي لها علاقة فيما بينها عن طريق إعادة صهر وتنظيم مجالات المعرفة وكشف المبادلات الماثلة في الواقع مثلا:

- كشف الجوانب الاجتماعية النفسية للجريمة.
- كشف الجوانب الاجتماعية الاقتصادية للفقر.
- كشف الجوانب الاجتماعية التاريخية للتماسك. (2)

في مستوى الملموس، فإن اللجوء إلى المقاربة المابين فرعية في دراسة الظاهرة،

أو المشكلة الاجتماعية، له فائدة كبيرة ، أهمها :

1. ترى المفوضية العامة للبحث العلمي والتقني في فرنسا أن العمل المنسق في سبيل التنمية الاقتصادية والاجتماعية محتاج إلى تعبئة إسهامات فروع علمية متنوعة، ومن ثم تنتج تحليلاتها المتكاملة فيما بينها أن نحط بمجموع ظاهر التنمية.

2. إن ظهور مناهج جديدة من طبيعة ما بين الفرعي هو عبارة عن ربط مجال بمجال ثان لا ينتهي إلى إرجاع الأول إلى الثاني أو تأييد فرع عن آخر، وإبراز احدهما، ولكنهما يشتركان في تفسير مشترك لظاهرة بخصائص تبين الصلة المرموقة بين الفرعين.

3. اقتنع العلماء أنه لا يمكن فصل الحياة العائلية عن الحياة المهنية ولا المظاهر الاقتصادية عن المظاهر النفسية لهذه المشكلات بالإضافة إلى أن عوامل المشكلات الاجتماعية عديدة، فبعضها ذات منشأ سيكولوجي، والأخرى ذات منشأ اقتصادي....، وأصبح بديهي لدى العلماء أنه عن طريق هذا الاختصاص العلمي أو ذاك لا يمكن الحصول إلاّ على رؤية جزئية للمشكلات وهي رؤية الاختصاص الواحد وتجاوز حدود الفروع الخاصة بغية الوصول إلى نظرة أشمل وأكمل.

4. كلما كانت المشكلات المدروسة ذات طابع عام، فإن معالجتها بفروع متعددة تصبح واجبا. فالمشكلات الكبرى تكشف ثلاث وقائع رئيسية تستأثر بالانتباه في هذا الميدان:

- تقارب بعض المشكلات الكبرى، وهي توجد في جميع فروع مجالنا الواسع.
- إن المشكلات الكبرى لها روابط تربطها بمشكلات العالم.
- لحل هذه المشكلات لا بد من اللجوء إلى بعض المفاهيم الأساسية التي تغطي في الواقع آليات مشتركة، وأن دراسة هذه الآليات المشتركة تتطلب دوماً جهداً مركزاً في الأبحاث بين الفرعية.

5. الغرض الحقيقي للبحث بين الفرعي هو إعادة صهر أو إعادة تنظيم مجالات المعرفة وذلك بالمبادلات الماثلة في الواقع في حالات إعادة التفاعل البناءة

6.إن التقارب بين إسهامات فروع مختلفة يقدم معرفة أكمل وأغنى لموضوع البحث. بالإضافة إلى مقارنة النتائج التي حصلنا عليها من فروع بالنتائج التي تقدمها فروع أخرى، مما يؤدي إلى معرفة أوسع وأعهد للظاهرة . (3)

وقد أجد من المفيد إلفات نظر القارئ إلى أن التقارب بين الفروع في هذا المجال لا يعني التشويش، فمن الأفضل وضع وجهات النظر أمام بعضها، وإضافة لقطات وتفسيرات وتجميعها حتى نستفيد من فهم الموضوع المدروس، فأثناء تحليل الواقع يكون التمييز بين وجهة النظر السيكولوجية، ووجهة النظر السوسيولوجية أو السياسية نوعا من الكسب والقيمة. وبفضل التمييز في وجهات النظر بين الفروع يصبح التحليل أكثر دقة، فضلاً عن أن عملية التحليل هذه تساهم في تركيب نموذجاً معرفياً أغنى وأكثر تلونا.

بعد هذا الاستطراد نوضح أن المقاربة المابين الفرعية تفرض على الباحث الإلتزام بخطوات منهجية عند تحليل الظاهرة المدروسة أو جمع البيانات عنها، فلنحاول تحليل كل خطوة من هذه الخطوات بنوع من التفصيل .

1- تعدد النظريات:

إن البحث في العلوم الاجتماعية يحتوي على بعدين :

الأول، البعد المفهمي CONCEPTUAL

الثاني، البعد النظري THEORITICAL

إن المفهوم هو تجريد الأحداث أو وصف مختصر لوقائع كثيرة ويستهدف تبسيط التفكير عن طريق الإشارة إلى فئات من الوقائع برمز عام، وهو رمز أو اسم لفئة، لكنه يشير إلى شيء معين .(4)

أما البعد النظري " يحدد صلة البحث بالإطار النظري الأشمل، وهذا الإطار النظري يضم كل الموضوعات والفروض والتعريفات والقضايا النظرية التي تمس جوانب هذا البحث بصورة مباشرة أو غير مباشرة .(5)

إن العلاقة بين البعد المفهمي والبعد النظري علاقة تكاملية. صحيح أن المفهوم في العلوم الاجتماعية أقل تجريدًا من النظرية، ولكنه جزء ضروري في أي نظرية مادامت النظرية تتشكل من المفاهيم المستخدمة والتصورات.(6)

فالمفهوم يمكن تحديده "علميا" حسبما جاء في أدبيات تخصص ما السوسيولوجيا على سبيل المثال. لكن تحديده بهذا الشكل يجعله واضحاً لدى فئة واحدة من الباحثين، بعبارة أخرى فالتحديد السوسيولوجي هو واحد من المقاربات. فكل مفهوم أو مصطلح له أبعاد عدة تبدأ بالبعد اللغوي الصرف، ومن خلال عدة

لغات، ثم يتطور ليأخذ معنى علمياً ومن زوايا متنوعة سيكولوجية، اقتصادية، قانونية...، بهذا توفر المفاهيم لغة مشتركة تمكن الباحثين من التواصل فيما بينهم.إن العلماء ُيلحون على ضرورة التفاعل المستمر بين البحث والنظرية، غير أن الباحث يجد نفسه أمام نظريات عديدة ومختلفة من حيث المجال والارتكاز والتفسير والبناء.

ويبدو أن الاعتماد على عليه نظرية بعينها لتفسير ظاهرة اجتماعية ما، من شأنه أن يحد من نظرة الباحث إلى الظاهرة المدروسة بشكل كبير، ويقلل، بالتالي، من مصداقية تفسيره لتلك الظاهرة ولكن اللجوء إلى أكثر من نظرية وأكثر من منظور في دراسة الظاهرة، أو المشكلة الاجتماعية، له فائدة كبيرة. فالأساس أو الغرض من استخدام تعدد النظريات(**)، يتمثل في رسم صورة متعددة المستويات لحقيقة الظاهرة المدروسة، لأن الحقيقة، في واقع أمرها قد يكون لها مستويات متعددة وأوجه مختلفة وليست بالضرورة صورة متسقة متكاملة الأجزاء. ويمكن حصر مبررات التعدد النظري في:

- تحظى العلوم الاجتماعية بوجود عدد كبير نسبياً من النظريات.
- تتفاوت النظريات من حيث التركيز على المواضيع التي تتناولها، سواء ركزت على الشخصية أو على تفسير المجتمع أو على ظاهرة اجتماعية بعينها.
- تتفاوت النظريات من حيث طريقة بنائها (استقرائية أو استنباطية)، وكذلك من حيث قوتها ودرجة التحقق التجريبي من فرضياتها.
- ليس هناك نظرية تحظى بقبول كافة المتخصصين في أي فرع من فروع العلوم الاجتماعية، ذلك أن كل نظرية تنظر إلى الظاهرة من منظور مختلف خاص بها.
- تعدد النظريات يسمح بتفسير الظاهرة والنظر إليها من زوايا مختلفة، مستخدما نظريات مختلفة مستقلة فلسفيا (ليست بالضرورة متناسقة فيما بينها) وذلك بغرض السماح للباحثين برؤية البدائل، المتاحة لهم نظريا، لتفسير البيانات من زوايا مختلفة، ومنع التحيز لنظرية بعينها، و/أو النظر إليها على أنها تمثل الواقع أو تفسره. (7)

والمقصود من هذا الطرح ، ألا يغفل الباحث المجرب عن حقيقة التعرف على طبيعة الظاهرة المدروسة وتحليل أبعادها ومعالجتها بصورة دقيقة، له أهمية كبرى في البحث العلمي. ومن ثم فإن الباحث لا يسعى إلى كشف جانب من الظاهرة ويترك الجوانب الأخرى لتلك الظاهرة غامضة .

إزاء هذا ، فإن اللجوء إلى أكثر من نظرية وأكثر من منظور في دراسة الظاهرة، أو المشكلة الاجتماعية، له فوائد كبيرة، نذكر منها ما يلي :

- إن اللجوء إلى نظرية بعينها لتفسير ظاهرة اجتماعية ما، من شأنه أن يحد من نظرة الباحث إلى الظاهرة المدروسة بشكل كبير، ويقلل، بالتالي، من مصداقية تفسيره لتلك الظاهرة.
- اختبار البيانات والمعلومات المجموعة في الدراسة، عن طريق أكثر ممن نظرية، مما يجعل التفسير المتوصل إليه أقرب إلى الدقة والصواب.
- إن توظيف أكثر من نظرية في دراسة الظاهرة نفسها يمنع الباحث من التحيز لنظرية معينة وتجاهل نظريات أخرى.
- إن استخدام أكثر من نظرية لتفسير الظاهرة أو المشكلة، محل الدراسة، يجعل الدراسة والتحليل أكثر عمقاً.
- يقلل من احتمالات الخطأ، التي قد تنتج عن وجود باحث واحد أو ملاحظ واحد ويقرب من الصواب مما يزيد من مصداقية البيانات المتحصل عليها.
- يقلل من احتمالية التحيز: تعتبر الموضوعية مطلباً تسعى العلوم الاجتماعية جاهدة لتحقيقه، ولما كانت هذه العلوم تتعامل مع الظواهر ترتبط بدرجات متفاوتة بذاتية الباحث وتؤثر وتتأثر به. فإن الملاحظة تعتبر من أكثر مناهج البحث عرضة للتحيز، وذلك نظراً لطبيعتها. لذا فإن الاعتماد على ملاحظ واحد يقلل، وبشكل كبير من قيمة النتائج المتحصل عليها. وفي المقابل فإن تعدد الملاحظين يقلل من احتمالية التحيز، مهما كان نوعه، كالتحيز لنتيجة أو لجنس أو لعقيدة أو للون، مما يزيد من موضوعية البحث وبالتالي مصداقية النتائج المتحصل عليها.
- يساعد على تفسير النتائج عن طريق أكثر من منظور (خاص بتعدد النظريات)، مما يجعل التفسير المتوصل إليه أقرب إلى الدقة والصواب. فكلما أمكن شرح وتفسير البيانات والمعلومات عن طريق نظريات أكثر، كلما كانت أقرب إلى الدقة والصواب.
- يزيد من مصداقية النتائج المتحصل عليها (خاص بجميع أنواع التعدد المنهجي باستثناء تعد النظريات). فمقارنة البيانات التي أخذت عن طريق الملفات مع تلك التي أخذت عن طريق الأشخاص، على سبيل المثال، كفيل بكشف الأخطاء أو المعلومات غير الدقيقة. فكلما كانت البيانات والمعلومات موثقة عن طريق أكثر من مصدر، كلما كانت أفضل وأقرب إلى الواقع.
- يساعد تلافي القصور الموجود في كل منهج، أداة، نظرية، مصدر، ملاحظ على حدة، خصوصا أن مناهج البحث فيها لها نقاط قوة ونقاط ضعف، كما أن أدوات جمع البيانات فيها لها أيضا نقاط قوة ونقاط ضعف.
- يمكن من الجمع بين المنهجين الكمي والكيفي (خاص بتعدد المناهج)، ذلك أن كلا المنهجين مطلوب وهما مكملان لبعضهما. ويبقى السؤال كيف يمكن الجمع بين المنهجين الكمي والكيفي في دراسة واحدة؟ وفي الواقع يعتبر التعدد المنهجي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها الجمع بين منهجي البحث الكمي

والكيفي والذي من شأنه أن يؤدي إلى تلافي غيوب المنهجين والجمع بين مزاياهما.(8)

2. تعدد المناهج:

تتأرجح العلوم الاجتماعية بين قطبي المنهجية الرئيسيين، وهما: المنهج الكمي والمنهج الكيفي، فعلى الرغم من أن الغالبية العظمى من الباحثين يميلون إلى المنهج الكمي، إلا أن ذلك لا يقلل على الاطلاق من شأن المنهج الكيفي.

وهناك فرق واضح في العلوم الاجتماعية بين استخدام المنهج الكمي والمنهج الكيفي(***)، فالمنهج الكمي من الناحية العملية يتميز بما يلي :

- يستخدم عادة لحصر وربط الظواهر الاجتماعية والنفسية.
- يعني المنهج الكمي للكثيرين استخدام تقنية العينة العشوائية والمنهج التجريبي وشبه التجريبي والمقاييس الموضوعية والتحليلات الإحصائية المعقدة ومنهج المسح الاجتماعي.
- المنهج الكمي له نظرة وضعية وذو خاصية جزئية وقائم على الاستنباط وموضوعي وموجه نحو النتائج وذو نظرة محايدة للعالم.
- إن المنهج الكمي مصمم للتحقيق والتأكد من العلاقات الموصوفة عن طريق النظرية. فالتجريب والعلاقات الإرتباطية، التي يكثر استخدامها في هذا المنهج مصممة بهدف التحقق من العلاقات بين المتغيرات.
- أدوات جمع البيانات في المنهج الكمي مصممة لتقدم حقائق موضوعية، ثابتة، رقمية، وقابلة للملاحظة والقياس حول جزئيات أو متغيرات معرفة تعريفا إجرائيا. ومن هذه الأدوات الملاحظة المقننة وتصاميم البحث التجريبية والاستمارة والمقاييس المقننة.

أما المنهج الكيفي، فيستخدم عادة لمعرفة :

- الخصائص الأساسية والضرورية للظواهر الاجتماعية والنفسية.
- يرتبط المنهج الكيفي باستخدام المنهج الاثنوغرافي ومنهج دراسة الحالة والمقابلات العميقة والملاحظة بالمشاركة.
- المنهج الكيفي قائم على الاستقرار ويهتم بالظواهر بصفة أكثر ويعتبر أكثر شمولية، وذو صبغة ذاتية وموجه نحو الخطوات وله نظرة أنثروبولوجية نحو العالم.
- صور المنهج الكيفي العالم على أنه شديد التعقيد، والحقائق فيه دائمة التغير ومكونة من أبعاد متعددة من التصورات والمعاني، التي تتأثر بشدة بالتفاعل بين السياق البيئي والتفاعل الذاتي للأشخاص.
- يهدف المنهج الكيفي إلى الكشف عن معاني العلاقات القائمة في إطار الظواهر الاجتماعية، وأثر هذه العلاقات على الأداء الاجتماعي.

-الأدوات المستخدمة في هذا المنهج فهي الملاحظة المباشرة غير المقننة والمقاييس غير المقننة والطبيعية، التي تستخدم في دراسة الظواهر الخالية من التحكم التجريبي. (9)

بالرغم من الجدل والخلاف الذي اشتد في فترة سابقة بين أنصار كل من المنهج الكمي والمنهج الكيفي إلا أن تطور الأبحاث الاجتماعية أصبح يفرض من الناحية التقنية حقيقة تتمثل في أن هذين المنهجين مكملان لبعضهما، وأن التوجه نحو دمج هذين المنهجين في دراسة واحدة يفرض نفسه أكثر فأكثر في الأبحاث الاجتماعية المعاصرة، وهذا ما يطلق عليه علماء المنهجية " التعدد المنهجي".

3. التعدد المنهجي للبيانات:

إن المقاربة المابين فرعية تفرض على الباحث أن يسلك مبدأ التعدد المنهجي عند التعامل مع البيانات سواء أكان ذلك أثناء الجمع أو عند الغوص في البحث عن مصادر تلك البيانات

3-1 التعدد المنهجي عند جمع البيانات :

يأخذ هذا النوع من أنواع التعدد المنهجي شكلين رئيسيين. أولهما، تعدد أدوات جمع البيانات. وثانيهما، التعددية داخل الأداة نفسها. أما الشكل الأول، وهو استخدام أكثر من أداة من أدوات جمع البيانات، كأن يستخدم الباحث الملاحظة والمقابلة، أو الملاحظة والاستبيان. ويبرر استخدام أكثر من أداة من أدوات جمع البيانات، على افتراض أن نقاط الضعف في أداة معينة هي نقاط القوة في أداة أخرى. لذا فإن استخدام أكثر من أداة من أدوات جمع البيانات في دراسة الظاهرة كفيل بتلافي العيوب الموجودة في كل أداة لوحدها.

أما الشكل الثاني من هذا النوع من أنواع التعدد المنهجي، فيتمثل في استخدام أكثر من مقياس داخل الأداة نفسها، كأن يقوم الباحث باستخدام ثلاثة مقاييس مختلفة داخل استمارة بحث واحدة. أو كأن يقوم الباحث باستخدام مقاييس متعددة مع أحد تصاميم النسق المفرد. ويعتبر هذا النوع أكثر أنواع التعدد المنهجي استخداما، خصوصا عندما تكون الظاهرة أو المشكلة المدروسة متعددة الأبعاد، بحيث تتضمن الأداة، كالاستمارة على سبيل المثال ومقاييس مختلفة بحيث يقيس كل مقاييس بعدا من أبعاد الظاهر.

3-2 التعدد المنهجي لمصادر البيانات:

يقوم هذا النوع من أنواع التعدد المنهجي على افتراض أن اللجوء إلى، أو الاكتفاء بمصدر بيانات واحد فقط لدراسة الظاهرة / المشكلة المراد دراستها، يكون محددا للباحث بصورة كبيرة من ناحية، وأقل مصداقية من ناحية أخرى. ويستخدم تعدد مصادر البيانات بهدف التأكد من مصداقية البيانات من المصادر المختلفة، وكذلك إلى لظاهرة أو المشكلة من زوايا مختلفة. وحيث أن كل مصدر من مصادر البيانات يعكس

في الواقع جزءا محددا من أجزاء الحقيقة، فإن اللجوء إلى أكثر من مصدر من مصادر البيانات وعدم الاكتفاء بمصدر واحد كفيل بتقديم أجزاء متعددة من الحقيقة المتعلقة بالظاهرة أو المشكلة المراد دراستها.

ثانيا :النمــاذج

يستخدم العلماء في الفروع العلمية الأخرى والمهن التكنولوجية والإلكترونية النماذج لتمثل بعض جوانب العالم الواقعي بشكل نظامي، ومن ثم يمكن أن يُنظر إلى النموذج على أنه شبيه بشيء ما. المهندس، مثلا، قد يصنع نموذجا لآلة، وتتصف هذه الآلة (النموذج) بأنها:

- منتج مصغر للآلة الحقيقية حيث يتضمن عرض قياسي لبعض خصائصه ولتركيبه إلا أنه يغفل بعض الجوانب الأخرى.
- يستخدم نموذج الآلة كممثل مادي وبصري لبنية وخصائص الآلة الحقيقية.
- يمكن أن يحل نموذج الآلة محل الآلة الحقيقية في التجريب والاختبار.
- يُعد اختبار نموذج الآلة، واحتمال تحقيقه فهما أفضل لبعض جوانب العلم للواقع.
- قد يقرر العالم تعديل نموذج الآلة ليتطابق مع رؤيته الجديدة أو لتكون تلك الآلة أكثر انسجاما مع الواقع.(10)

وقد أجد من المفيد الفات نظر القارئ إلى أن فكرة تطبيق النماذج في العلوم الاجتماعية كاستناد منهجي اشتقت من العلوم التكنولوجية وتطورها التاريخي. فالحركات العلمية في السنوات الأخيرة تميزت بكثرة الفروع الجديدة للمعرفة وتواصل قطاعات البحث فيما بينها ،كل ذلك أدى إلى تبني اتجاه الانفتاح والمبادلات في التفكير والبحث العلمي .

بعد هذا الاستطراد يمكن تعريف النموذج انطلاقا من زاويتين:

أ. من حيث الشكل يعرف بأنه عبارة عن: " عرض لفظي أو رياضي أو بياني لفكرة أو لجانب أو مظهر من مظاهر العالم الذي نعيش فيه. وهو تركيب اصطناعي يعبر عن منطق معين لحجة ما أو فرض أو قضية محددة ". (11)

ب. أما من حيث المضمون فهو :" نمط من العلاقات المتصورة أو الملموسة التي يشاهدها الإنسان في ملاحظته للعالم كأنماط السلوك الاجتماعي" . (12)

إذن ، فالنموذج ليس موجودا في الواقع وإنما يصاغ نظريا من أجل تقريب الواقع منه على سبيلين:

أ. فهم الواقع من خلال خصائص النموذج وأبعاده

ب. تغيير الواقع في محاولة للاقتراب من هذا النموذج " المثالي " الذي يحمل درجة من الواقعية تجعل تحقيقه ممكنا.

في ضوء ما تقدم يمكن القول أن النماذج في العلوم الاجتماعية تتصف بما يلي :
- تتكون عادة من رموز بدلا من أجزاء مادية.
- تجريد للواقع حيث ينظم ويبسط رؤيتنا لجوانب معقدة في العالم الواقعي وذلك بعرض خصائصها الجوهرية.
- تُستخدم للوصول إلى رؤية معمقة للظاهرة التي يصعب ملاحظتها مباشرة مثل " القوة ". عند تحليل السياسة، على سبيل المثال، يصيغ الباحثون نماذج لبنيات وعمليات صنع القرار، ويستنبطون قضايا تتعلق بسلوك صانعي القرار. ثم تقيّم هذه القضايا وفق ما يقابلها من البيانات التجريبية. كما يستخدم محللو السياسة النماذج لتقدير نتائج بدائل الإجراءات لفعل قد يختاره صانع القرار، حيث يقدم النموذج هنا أساسا نظاميا للخيارات السياسية بدلا من اللجوء إلى الأحكام الذاتية.
- يعرض النموذج بشكل تجريدي لمسار الظاهرة وتفاعلها في العالم الواقعي كاشفا عن الأطر المثلى للتفاعل والمجال البشري أو المادي المستهدف والجهة المنفذة والعوامل البيئية المتأثرة .
- إذا تم تصميم النماذج بشكل جيد، فهي تقارب الواقع بشكل كبير، ولكن النماذج نفسها لن تكون الواقع أبدا وهي دائمة التغير لتمثيل الواقع بشكل أكثر دقة وللإحاطة بأي معرفة جديدة. والخاصية المهمة للنموذج العلمي هي قابليته للاختبار التجريبي، أي أنه قد يمكن إثبات خطأه وبالتالي تغييره أو استبعاده.
- مفهوم النماذج ذو صلة وثيقة بفكرة النظرية كتنظيم مفاهيمي منهجي، حيث يحول العلماء تقديم تنظيم مفاهيمي باستخدام النماذج.
- النموذج تمثيل للواقع، فهو يوضح بشكل مفصل تلك الجوانب في العالم الواقعي التي يعتقد العلماء أنها ذات صلة وثيقة بالمشكلة قيد البحث، ويرسم العلاقات المهمة بين هذه الجوانب، ويمكّن الباحث من إنشاء قضايا متعلقة بطبيعة هذه العلاقات وقابلة للاختبار التجريبي.(13)

وهناك نوعان من النماذج: واقعية، ومثالية أو افتراضية.

أ. **النماذج الواقعية**: وتقوم بمهمة تمثيل العالم الواقعي بأقصى درجة ممكنة من الدقة، وتكون وظيفتها تقديم الظاهرة المدروسة بأبعادها كما لاحظها الباحث.

ب. النماذج المثالية أو الافتراضية: يصاغ لكي يبين كيف تبدو الظاهرة محل الدراسة إذا أصبحت بعض الظروف والعوامل غير الواقعية أو غير المعروفة، واقعة بالفعل.(14)

بقي أن نشير إلى أن الأساس التنظيري للنموذج يجب أن يرتبط بالنظريات المختلفة المشارب التي تم استخدامها كإطار للبحث من جهة، وبين نتائج الدراسة الميدانية من جهة ثانية، ومن هاتين الصورتين يحاول الباحث أن يضع الأسس

للنموذج في جدول عن طريق اشتقاق مجموعة من الأفعال يجب تنفيذها من خلال مضمون كل نظرية على حدة.

الهوامش

(*)- رغبة مني في تجنب أي سوء فهم محتمل أُذكر أن علماء المنهجية يفرقون بين كل من المقاربة" المابين فرعية " Interdisciplinaire والمقاربة المتعددة الفروع "Pluridisciplinaire" فإذا كانت المقاربة المابين فرعية: تعني تطبيق لما اشترك بين عدة فروع التي لها علاقة فيما بينها. فإن المقاربة المتعددة الفروع "Pluridisciplinaire" : تتضمن فقط تعاون عدة فروع شريطة أن كل فرع يحافظ على خصوصياته.(لمزيد من المعلومات في هذا السياق أنظر:اليونسكو: الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد 2-3، مطبعة جامعة دمشق، 1976).

(**)- يفرق العلماء بين كل من التعدد النظري، التكامل المعرفي، والدمج النظري، فالتعدد النظري يعتمد على أكثر من نظرية في إطار الحقل نفسه في دراسة الظاهرة.أما التكامل المعرفي في واقعه هو الاعتماد على أكثر من حقل في دراسة الظاهرة نفسها، ومن الممكن أن يكون الاعتماد على نظريات مختلفة من حقول علمية مختلفة في دراسة الظاهرة. في حين نجد أن الدمج النظري (وليس التعدد النظري) يتم فيه مزج أجزاء متفرقة من نظريات مختلفة لتفسير سلوك. إلا أن هذا النموذج تعرض لانتقادات حادة بسبب صهره لنظريات مختلفة، وفي أحيان كثيرة متضاربة في أساسها الفلسفي، في إطار واحد، وهو ما يختلف تماما عن تعدد النظريات الذي يسمح بتفسير الظاهرة والنظر إليها من زوايا مختلفة، مستخدما نظريات مختلفة مستقلة فلسفيا (ليست بالضرورة متناسقة فيما بينها) وذلك بغرض السماح للباحثين برؤية البدائل، المتاحة لهم نظريا، لتفسير البيانات من زوايا مختلفة، ومنع التحيز لنظرية بعينها، و/أو النظر إليها على أنها تمثل الواقع أو تفسره.(لمزيد من المعلومات في هذا المجال انظر: سامي عبد العزيز الدامغ: التعدد المنهجي، مجلة العلوم الاجتماعية ،الكويت، مجلد24عدد4 شتاء 1996 ص ص107-122).

(***)- تجدر الإشارة إلى أن الفرق بين المنهجين الكمي والكيفي يتعلق بجذورهما الفلسفية. فالمنهج الكمي منطلق من الفلسفة المنطقية الوضعية، التي ترى أن المعاني مستقلة عما نراه من حولنا من أشياء، وأنها (أي المعاني) من الممكن تفتيتها إلى أجزاء صغيرة قابلة للقياس عن طريق مقاييس موضوعية. أما المنهج الكيفي فمنطلق من الفلسفة البنائية الاجتماعية التي ترى أن هناك حقائق متعددة وأن الحقيقة في واقع أمرها لها مستويات وأبعاد متعددة، وأن المعاني يمكن فهمها من خلال مستويات متعددة عن طريق السياق الاجتماعي.(لمزيد من المعلومات في هذا السياق

أنظر :ناجي بدر إبراهيم: الأساليب الكمية في علم الاجتماع دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية ،2003) .

المراجع

1. شاقا-دافيد ناشيماز، طرائق البحث في العلوم الاجتماعية، ترجمة ليلى الطويل، بترا للنشر والتوزيع، دمشق، 2004 ص ص 58-59.
2. اليونسكو، الاتجاهات الرئيسية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، القسم المجلد 2، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، 1976 ص ص 363-465.
3. اليونسكو، الاتجاهات الرئيسية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، القسم المجلد 3، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، 1976 ص ص 87-195.
4. محمد الجوهري وآخرون، دراسة في علم الاجتماع، دار المعارف، القاهرة، 1975 ص ص 106 – 107.
5. المرجع نفسه، ص ص 106 – 107.
6. محمد علي محمد وآخرون (CONCEPT)، المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1985.
7. سامي عبد العزيز: التعدد المنهجي، مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت، مجلد 24 عدد 4، شتاء 1996 ص ص 109-110.
8. المرجع نفسه، ص ص 111.
9. المرجع نفسه، ص ص 111-113.
10. شاقا-دافيد ناشيماز مرجع سابق، ص ص 58-59 .
11. سامية محمد جابر، علم الاجتماع العام، دار النهضة العربية، 2003 ص 38.
12. أحمد زكي بدوي – (نموذج) .
13. شاقا-دافيد ناشيماز، مرجع سابق، ص ص 56-59 .
14. سامية محمد جابر، مرجع سابق، ص38.